قنوات الاتصال والأقمار الصناعيّة التي تُمطر العالم في كلّ حين وآن بالأخبار والمواقف والتأويلات: إمّا تراه حسَناً فتحسنه وإمّا تراه سيّئاً فتُبشّعُه؟[1] ولكنّ السؤال الأهمّ في نظرنا اليوم هو: هل الكونيُّ اليومَ ثقافةٌ أم ايديولوجيا؟

كان العالمَ قبل الحربيْن وأثناءهما يُهَيْمن عليه الغربُ الأوروبيّ. ولم يكد العالَمُ يَطوي صفحات الحرب حتى ظهرتْ أمريكا يُغريها العالم الممزّق فتتقدّم إليه تأخذ منه مساحات، لا من ترابه، ولكنْ من عقله ووجدانه. ولم يمرّ طويل وقت حتى كان العالمُ بين ثقافتين كبيرتين نزّاعتين إلى الهيمنة وهما: الأمريكية الرأسماليّة والروسيّة الشيوعيّة. وبدأ ما يُسمّى بالحرب الباردة: صراعٌ ايديولوجيّ قويٌّ ممتدّ إلى الشعوب المتخلّفة يحاول أن يصطنعها إمّا لحساب هذه القوة وإمّا لحساب تلك. وقد كانت حركاتُ التحرر القوميّ، مع عمق إيمانها بقضاياها الوطنيّة، لا ترى ضيراً من النسج على منوال الكتلة الشيوعيّة أو الكتلة الرأسماليّة؛ وإنْ شئنا التدقيق قُلنا إنّ تلك الحركات كانت مبهورةً أو متأثّرةً إمّا بالشيوعيّة وإمّا بالرأسماليّة. ولا تعنينا النتائجُ المحصّلة لأنّها ليست من أهداف هذه الدراسة، ولكننا أحببنا فقط أن نُتابع بسرعة المسار التاريخي الذي سيفرز لاحقاً الثقافةَ العالمية.

إلى حدود ما انتهينا إليه، إذن، وقفنا على ما مفاده أنّ النهضة الأوروبيّة أنتجَتْها ثوراتٌ علميّة ورعَتْها فلسفةٌ تنتصر للإنسان. كما وقفنا على أمر آخر وهو أنّ النهضة الأوروبية كوّنتْ بنيةً اقتصادية ضخمة وفيضاً من السلع المعمليّة. ووقفنا أيضاً على أمر ثالث ناشئ وهو الحركة الاستعمارية التي مِنْ مخلّفاتها بروزُ الكتلتيْن المذكورتيْن وانجذابُ حركات التحرر الوطني إليهما. ومن المهمّ أن نشير إلى أمر رابع هو أن الحضور الأوروبي قد تراجع أثناء الحرب الباردة، وظلّ فيها الشرقُ مستضعَفاً لا إسهام فعليّاً له في تشكيل ملامح العصر*.

٢ ـ العولمة الثقافية...

بقلم: حواس محمود

لم تعد الثقافة اليوم خاضعة لوسائل تقليدية في النشر والانتشار، وإنّما أضحتْ متأثرةً إلى حدٍ بعيد بالتكنولوجيا عامة والتكنولوجيا الاتصالية خاصة. ومن هنا جاء مصطلح «العولمة الثقافية»، ويعني قدرةَ الثقافات الأقوى تكنولوجياً على السيطرة على الثقافات الأضعف تكنولوجياً؛ ويعني بصورةٍ أوضحَ محاولةَ مجتمعٍ مّا تعميمَ نموذجه الثقافي على المجتمعات الأخرى من خلال التأثير على المفاهيم الحضارية والقيم الثقافية السلوكية لأفراد هذه المجتمعات، وذلك بوسائل سياسية واقتصادية وثقافية وتقنية متعددة.

بعضُ المحطات التلفزيونية الفضائية تمتلك موارد تفوق ميزانيات بعض الدول

وتهدف العولمةُ الثقافية إلى زرع قيم القوى المسيطرة وأفكارها في وعي الآخرين، وعلى الأخص أبناءِ المجتمعات العربية، وإلى فتح هذه المجتمعات (أو اختراقها ثقافياً) وإسقاط عناصر الممانعة والمقاومة والتحصين لديها. وتستهدف بالمعنى الثقافي الحضاري إعادةَ صياغة قيم وعادات جديدة لهذه المجتمعات، ووسيلتها الأساسية في ذلك أداةٌ إعلاميةٌ جبارةٌ. وإذا كان عالمُ النفس الأمريكي الشهير «سِكِنِرْ» قد أشار قبل عقود في كتابه **تكنولوجيا السلوك الإنساني** إلى إمكانية ضبط سلوك الإنسان بالطريقة التي يُضبط فيها سلوكُ حيوانات السيرك، مركّزاً على دور الأسلوب المشوّق والجذاب في ذلك الضبط، فإنّ العولمة الثقافية أصبحت تمارس نوعاً من التحكم بسلوك الأفراد والمجتمعات رغم بعض أشكالها الجذابة.

ولهذا لم يعد مستغرباً أن تمتلك بعضُ المحطات التلفزيونية الفضائية مواردَ تفوق ميزانيات بعضِ الدول النامية، أو أن تصل ميزانيةُ فيلمٍ سينمائي إلى مئات الملايين من الدولارات. إنّ مراكز المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات هي التي تمتلك اليوم مفاتيح الثقافة، ولذلك نجحت الدولُ الغربية في نشر ثقافتها عبر المحيطات والقارات، والترويج لأفكارها وقيمها الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية على حساب اكتساح الثقافات الوطنية. ويُعتبر اكتساحُ الثقافات الوطنية نقطةً رئيسية من ثلاث نقاط لتبيان آثار العولمة الثقافية، وقد حدّدها المفكّر الدكتور برهان غليون في ندوةٍ عقُدتْ في القاهرة عام ١٩٩٦ بعنوان «مستقبل الثقافة العربية»، حين قال إنّ العولمة الثقافية تقوم بتعميم أزمة الهوية، فيتضاءلُ ـ مع تزايد الثقافات الأقوى في فضاء

---

١ ـ راجع مثلاً عياضي نصر الدين «الخطاب الصحافي في الاستعماري في ظروف الأزمة»، مجلة **المستقبل العربي**، جانفي ١٩٩٣.

* ـ إلى هنا ينتهي البحث، وإن كان السياق يوحي بأن ثمة أوراقاً ناقصة. فاقتضى التنويه (**الآداب**).

مفتوح ـ وزنُ الثقافات الوطنية ونفوذُها. وفي هذا الصدد تجدر الإشارةُ إلى تحذير المؤرخ الثقافي جورج ستينر من أنّ هذه الحضارة [القوية المعولمة] سوف تفرز تماثلاً كاسحاً يهدِّد الثقافات المحلية، ويعود مصدرُ معظم هذا التماثل إلى صناعات الإعلان والترفيه والسينما. فالأفلام والبرامج التلفزيونية الأمريكية تباع على نطاق واسع في كل أنحاء العالم، وتبلغ الآن جملةُ هذه المبيعات أكثر من ٥ بلايين دولار سنوياً. وقد وصفتْ إحدى الصحف الهندية وسائل الإعلام هذه بأنها «النمل الأبيض الذي يُقوِّض قيمنا وعاداتنا».

والعولمة الثقافية لا تهدد البلدان النامية والصغيرة فحسب، وإنما تهدِّد أيضاً دولاً كبرى، وهذه الدول تشعر بالخوف والقلق من انتشار الثقافة الأمريكية في المجتمع الفرنسي مثلاً. لقد تساءل الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران قائلاً «هل تحقِّق قوانينُ المال والتكنولوجيا ما أخفقت الأنظمةُ الشمولية في تحقيقه؟». ومعروف أنّ فرنسا قد تنازعتْ مع الولايات المتحدة الأمريكية في موضوع «الجات» حول «الاستثناء الثقافي»، حتّى إنّ أحد الاوروبيين تحفَّظ على النجاح الذي أحرزه فيلم «الحديقة الجوراسية» للمخرج ستيفِنْ سپيلبرج لدرجةِ وصفهِ هذه الظاهرةَ بأنّها «امبرياليةٌ ثقافية أمريكية». إنّ نسبة ٦٠٪ من واردات صناديق التذاكر في دُور السينما الفرنسية مصدرُها أفلامٌ أمريكية معروضة، ولو لم تفرض السلطاتُ الفرنسية قانوناً تُلزم بموجبه قنواتِ التلفزيون الفرنسي بأن تبلغ نسبةُ ما تعرضه من برامج أوروبية ستّين في المئة، لكانت البرامجُ الأمريكية ستسيطر دون شك على الشاشة الصغيرة سيطرةً كاملة.

وفي هذا السياق تجاوز الأمرُ فرنسا إلى البرلمان الأوروبي، إذ فرض هذا البرلمانُ قيوداً شديدة على الأفلام الأمريكية التي تعرضها التلفزيوناتُ الأوروبية، وأبدى استغرابه من تردّد بعض الدول الأوروبية في وضع قيود جبرية على الأفلام الأمريكية خشيةَ أن تشن الولاياتُ المتحدة حرباً تجارية ضدها. ويتزعّم الحملة ضد أمركة الثقافة في أوروبا في البرلمان الأوروبي النائبةُ الأيطالية «لوتشيانا كاستيلنا» التي تستند في شرعية حملتها إلى إحصاءات تقول: «إنّ من بين كل عشرة أفلام تُعرض في قاعات السينما الأوربية ثمانيةَ أفلام أمريكية، بينما يعرض التلفزيونُ الأوروبي ستةَ أفلام أمريكية من بين كل عشرة أفلام»، الأمر الذي حقق للولايات المتحدة فائضاً تجارياً مع أوروبا بلغ أربعة مليار دولار في قطاع الترفيه.

العولمة الثقافية تهدّد دولاً كبرى، لا دولاً نامية فحسب

وماذا عن العالم العربي؟

إذا كان الإعلام الفرنسي يجد مسوّغاتٍ كثيرةً للخوف على الهوية الفرنسية من الهيمنة الانكلوسكسونية، فإنّ لدى العالم العربي من المسوّغات ما يفوق ذلك بكثير في ظروف التهديد الحضاري الشامل التي يعيشها. وهنا لا بدّ من التأكيد على أنّ رفض العالم العربي للغزو الغربي لا يعني الدعوة إلى الانغلاق والتقوقع في أطر ضيقة ومحدودة في مواجهة ثقافة العصر، بل يجب أن يحصل تفاعلٌ ثقافي بين الثقافات الإنسانية في العالم، وذلك لاستمرار تقدم المجتمعات العربية ولتسليح الشعوب العربية بقيم ورؤى وأفكار تمكّنها من الإبداع والمشاركة في صناعة ثقافة عالمية... بشرط ألا يطمس هذا التفاعلُ الخصوصيةَ الثقافيةَ والهويةَ الثقافيةَ المتميزة للعالم العربي التي هي في الحقيقة محصّلةٌ لتطور تاريخي.

إنّ العالم العربي أمام معادلة صعبة شائكة يتطلّب حلُّها المحافظةَ على العناصر الإيجابية في الثقافة العربية بما يدعم خصوصيتَها وتعبيرَها عن خبراتها التاريخية، والانفتاحَ في الوقت نفسه على الثقافة العالمية بمكوِّناتها المختلفة.

وفي الختام يمكن القول بأنّ عصرنا الحالي سيفرز العديد من الظواهر والمفاهيم والمصطلحات، وعلى العالم العربي ألاّ يبني موقفه منها بالاستناد إلى الثورات العاطفية وردود الأفعال ومواكبة الموجات الفكرية السائدة. إنّ الوضع الحالي تكنولوجياً وايديولوجياً يتطلّب من شعوب العالم العربي، كغيرها من شعوب العالم، السعيَ إلى امتلاك ناصية التقدم العلمي وعدم تضييع الوقت والجهد والورق والمال في سجالات ونقاشات... حتى لا يمرّ وقت طويل يأتي بعده مفكرون ليكتشفوا عقمَ السجالات الماضية فنندم على عدم اتخاذ خطوات عملية حاسمة في اللحظة التاريخية.

القامشلي ـ سوريا